

ماركيز

الجزء الثالث

الدكتور مزوار محمد سعيد

الحياة معقَّدَة أكثر بكثير مما تخيَّلَ ماركيز، وهي أبسط بكثير ممَّا يمكن لماركيز تصوُّره، هذا ما وصل إليه هذا الأستاذ برتبة فيلسوف خلال تفكيره الطويل الذي يمتدُّ لسنوات في الكثير من المواضيع والموضوعات بشكل كثيف للغاية، وهذا ما حثَّه على المغامرة دائما وأبدا، فكلُّ ما قام به ليس صدفة أو ضربة حظ فقط. "كلُّ هذه الأمثلة المزعومة مأخوذة بلا استثناء من أحكام، ولكنها ليست عن أشياء ولا عن وجودها، والضرورة اللا-مشروطة للأحكام ليست ضرورة مطلقة للأشياء" (كانط، نقد العقل المحض – الطبعة الألمانية، ص: 460).

الحقيقة ليست مجانية لأحد، هناك دروب على المرء أن يقطعها دافعا الثمن مسبقا للوصول إلى يقينه الحتمي، هناك منعرجات كثيرة على طول هذه الطريق، هناك الكثير من الصعاب على حواشي كلِّ منعرج، لهذا من الصعب على كلِّ واحد، أن يصل إلى مراده بالسهولة التي يرغب فيها، والقليل جدا من البشر يمكنه الوصول إلى نهاية الطريق بشكل كامل وجدِّي.

ماركيز باحث عن الحقيقة، عن حقيقته منذ زمن بعيد، منذ أن لطمته الحياة بقسوة لتسلب براءته، منذ أن حاول القريب قبل البعيد أن يرميه بين قضبان العبودية القسرية على أرض لا تعترف سوى بالعبيد من أبناء القراصنة وتكرِّمهم أيَّامَ تكريم، ماركيز أخذ على عاتقه ذلك الوعد، الذي قطعه سيدِّي إبراهيم عليه السلام لأبيه – عمِّه، وها هو يعمل على تحقيقه دافعا الثمن بكلِّ المقاييس والمعايير المختلفة. ذلك الوعد الذي قطعه سيدِّي محمد عليه الصلاة والسلام لعمِّه أبو طالب؛ ماركيز يحاول السير على هذا الدَّرب على طريقة جماهير ليفربول الإنجليزية، هو يقسو على نفسه كثيرا، لكنَّ نتائج هذه القسوة تبدوا قريبة التحقيق، هناك أمل في الأفق، حتى ولو بدت النهايات مجهولة بالنسبة إليه، فإنَّه يهرع نحوها بكلِّ ما يحمله من قوَّة وإقبال.

أشعل ماركيز سيجارة وراح يشاهد من شرفته تلك الشجرة التي غرستها الراحلة كريستينا رحمها الله، راح يتأمَّل ميزة الأشياء التي تبقى خالدة بينما يفنى صاحبها، هي شجرة هي كائن حي، أقل شأنا من الإنسان كما يدَّعي هذا الأخير بكل فخر، لكنَّ الإنسان

يرحل عن هذه الحياة عندما يشاء الله سبحانه، فتبقى تلك الشجرة من بعده تذكِّر أحبابه المشتاقين إليه به وبحضوره الذي كان يوما ما، يجعلهم يتفاعلون معه بعفوية أو عبر حساباتهم الخاصة.

يحاول ماركيز الابتعاد عن الأحكام الوضعية بكلِّ ما لديه من شجاعة، هو يتبنى المقولة التي تدَّعي بأنَّ لكلِّ إنسانٍ دوره في الحياة، له قصته الفريدة والمتميِّزة، لهذا أمام هذه الرؤيا، تصبح الأحكام مجرَّد أعشاب ضارة تنموا حول الفكرة الرئيسية للاختلاف والتميُّز، تميُّزُ الفرد بلا استثناء.

أوهام السلطة والثراء من وحي ما يسميهم ماركيز بأزلام البشرية، وهذه الأوهام تخرج من الأحكام، تلك التي تصنع المجتمعات المخملية، لكنها أوهام صارت حقائق ومناهج للعيش على أرض الجنَّة ما وراء البحر، صارت قضايا مصيرية، وعلاقات وجودية بشكل يجعل الفرد النبيل مثل الأستاذ ماركيز يتعفف بشكل نهائي في مواجهة هذه الأفكار التي صارت بمثابة بديهيات ومسلَّمات بصورة نهائية ومحكمة التواجد في الأذهان. أوهام كهذه هي السَّبب الأوَّل والأخير لعذابات النبلاء الذين يعيشون على أرض القراصنة، يصبحون أقلية سرعان ما تتعرَّض للاضطهاد القهري الواضح، لأنَّ القرصان يؤمن فطريا بالقوَّة التي تستعمل في البطش، لهذا هو يقسِّم العالَم مِن حوله إلى قسميْن: فريقٌ يستعمل تلك القوَّة ليبطش به، وفريقٌ آخر يتعرَّض لبطشه بسبب عدم امتلاكه لتلك القوَّة. هذا ما يجعل القرصان في ذهن ماركيز أكثر توحُّشًا من الوحوش الضارية في الطبيعة، فمَن يتخلَّى عن إنسانيته لقاء إيمانه بأوهام التفوُّق على غيره عبر تسليمه بالعبودية والانبطاح الذليل، لن يكون إنسانا حتى ولو ادَّعى العكس.

تزداد قناعة ماركيز بأنَّ أرض القراصنة ليست مكانا مناسبا لحياة النبلاء؛ والذي يعتبر نفسه فردا واحدا منهم، هذه القناعة تترسَّخُ لديْه كلَّما تعرَّضَ لأحد المواقف التي تجعله يعيش بذهنه إحدى مواقف القرون التي أكل عليْها الدَّهر وشرب، ليفيض بداخله ذلك الانقلاب الفكري الذي عاشه كما عايشه الكثير من النبلاء قبله خلال عصور مضت.

"لكن ذلك (ديكارت) أخطأ بطريقة مزدوجة؛ فقد شكَّ أكثر ممَّا يجب، وتوقَّف عن الشكِّ بسهولة جدا" (شاخت ريتشارد، رواد الفلسفة الحديثة، الطبعة العربية – القاهرة 1993م، ص: 62).

ماركيز (**Marquez**) يتناقصُ شكُّه في قناعته بترك أرض القراصنة والبحث عن أرض جديدة للعيْش عليها كلَّ حين، هذا الشك في الحياة الوردية التي يتمناها يتضاءل، يرغب

بأخذ المسار الذي يراه مناسبا، قد تخونه الشجاعة، قد ينقصه التصميم على إحداث الفرق، قد يرغب بخطف الحياة من ذاته ليفرشها أمامه، فيتأمَّل ما لها وما عليها، لكنَّه لا يستطيع أن يبقى جامدا، وقد أثبت فيما سبق، خلال مراحل بعينها بأنَّه قويٌّ جدا، ومقدام للغاية، وقادر على حمل الشمعة وسط الظلام الدامس، في مكان مليء بالقناصين المهرة في صفوف عدوه، لهذا هو يتحيَّنُ الفرصة، غير متسرع، ويحسب بدقة متناهية التركيز خطواته المتتالية.

الشك والخوف هما ما يجعلان البشر ينقسمون إلى عظماء وبسطاء، هما ما يجعلان النبلاء بهذه القيمة وغيرهم من القراصنة بهذا الانحطاط، لا يوجد عظيم في تاريخ الإنسان لم يهزم الخوف، ولا يوجد أيُّ إنسان عاش أو يعيش حياة مليئة بما تمناه يوما ما، قد هزمه الشك، فالإيمان هو العامل الفاصل في حياة البشر، والقوة تنبع من الثقة بالنفس، من جنون الفرد عندما يسير على حواف الأنهر والجبال حتى يصل إلى القمم، الأمر ليس متاحا للجميع، لأنَّه هناك مَن هو خائف مِن الظلام، ظلام النفق، وهناك من يشك في قدرته على هزيمة الخطر، هنا الفصل بين الجد واللعب، اسألوا مانديلا عمَّا أقول، واطلبوا الشرح من حاتم الطائي لو لم تفهموا ما أرمي إليه.

لطالما استعمل ماركيز بذور الثورة بداخله، نصال التمرُّد التي ولدت في دمائه، من أجل التغلُّب على خوفه وشكه معًا، لطالما كان الجندي القادر على هزيمة نفسه أوَّلا قبل مواجهة باقي القراصنة – هؤلاء التافهون التي ابتليت بهم الجنَّة ما وراء البحر – لقد عمل دائما على إبقاء جمر الاندفاع بداخله متقدا، فقط هو لا يريد أن يصبح عشوائيا في خياراته، لأنَّه يدرك جيِّدًا الخيط الرفيع الذي يفصل الهَبَل عن الجنون.

سيغامر ماركيز، هذه طبيعة حياته، سيرمي كلَّ ما بداخله من خوف وشك خلفه فيصبح من الماضي، وسيقتحم المجاهيل على اختلافها، لأنَّ بركان الاندفاع يكبر بداخله كلَّ يوم، والقراصنة من حوله يقومون بتغذيته بالحِمم كلَّ حين، فعلا هو مقتنع بأنَّ النبلاء سجنهم الأكبر هي أرض القراصنة، وهذه الأرض لا تترك ولا فرد من أبنائها يرحل عنها بسلام، لأنَّها لا تؤمن بالسلام أبدا.

مَن لا يغامر لن يعيش، هذا القانون الإلهي هو ما يخشاه البشر ويخافونه حدَّ الرهاب، لكن الله سبحانه وتعالى قد أوضح لنا بشكل دائم ما مدى جدوى هذا القانون، غامر سيدي محمد عليه الصلاة والسلام فهاجر نحو يثرب، وصنع نوح عليه السلام السفينة في الصحراء، غزا كولومبوس المحيط بكلِّ شجاعة، حارب طارق بن زياد أوربا بكل ما

يحمله من قوة، وحمل هتلر السلاح في وجه العالَم إيمانا بعظمة جرمانيا، مَن يرغب بالعيش في هدوء، في حياة لا تعترف بالهدوء، ذاك هو الجبان الذي يسميه ماركيز بالقرصان.

القراصنة لا يقرؤون، هُم يعيشون في البراري كالمخلوقات الضارية، لهذا هُم يكرهون كلُّ ما له علاقة بالكتب والمكتوب، سواء كان كاتبا، قارئا أو حاملا لكِتابٍ ما، هذا الكره صار حقدا يقتات من السواد الذي غزا قلوبهم المتحجِّرة منذ فجر الوجود، لهذا من المستحيل – إن كان هناك مستحيل – أن يلقى ماركيز احتراما أو حبًّا على أرض القراصنة، لأنَّه أقدم على جريمة لا يمكن للقرصان أن يسامحه بسببها، ماركيز هو مَن جنى على نفسه، استغفر الله وأتوب إليه: ماركيز قارئ وكاتِب في الوقت نفسه، كيف لرواد الجنَّة ما وراء البحر أن يعاملوا ماركيز كمُحترَم؟ هذا العار الذي سيرافقه دائما، عار الكتابة المزمن والعياذ بالله.

يتعرَّضُ ماركيز للكثير مِن المضايقات بسبب إقدامه على الكتابة، القراصنة لا يرحمون الكتَّاب والمؤلفين، حتى سجائره بين شفاهه ترغب بالفرار إن ما أراد التعبير عمًّا بداخله بالحروف والمعاني، كلُّ ما له صلة بالقراصنة يخاف من الحروف وسلطانها، لأنَّها تذكرهم بالإنسانية، بينما هُم يعشقون موقعهم الحالي، ما تحت مستوى الحيوانية، هُم عبارة عن غرائز بلا وجهة تمشي على سطح الأرض، فكيف لهم أن يحبوا مَن يحاول بكلِّ قواه أن يجعل منهم من بني الإنسان؟

يحفظُ ماركيز تلك النظرات التي يتطاير منها شرر الغضب الحاقد عليه، يتجاهلها بلطف وسخرية في الآن معًا، ويحاول أن يشقَّ طريقه بين جموع الجهالة التي تحيط به مِن كلِّ اتجاه، هو يعرف ويدرك جيِّدًا ما يمكن لهؤلاء الحاقدين فعله به، لهذا يتحاشى الخوض معهم في مسائل جهلهم، مِن مبدأ: هي مأمورة!

الذلُّ الذي شربه القراصنة حتى مستوى العربدة، هو ما يجعل ماركيز يشفق على أحوالهم، مِن الصعب أن تقنع الخفاش بأنَّ السير تحت نور الشَّمس مفيد للجسم بدل البقاء في ظلمات المغارات، مهمة قاسية لماركيز تلك التي يرغب بحملها على كاهله، إن ما هو فكَّر في دخول جدال مع قومه حول أهمية القراءة/الكتابة في حياة الإنسان، هؤلاء يعتبرون حاملي الأقلام والعازفين على ألواح المفاتيح أناسا بمراتب الأعداء منذ الأزل، لهذا يعتبر ماركيز قومه أرذل ما خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض، ومع ذلك

لم يستسلم بعد، وفي كلِّ مناسبة سانحة تجده يحاول الخوض في أهمية استخدام العقول فيما يفيد العباد والبلاد.

أذكى القراصنة تجده يفكِّر ليقول لا ليعمل، هذا الاكتشاف محفوظ لفيلسوف الجزائر المطرود، وهذا ما يؤمن به ماركيز فعلا وقولا، بل إنَّ الدجَّال بين القراصنة هو ذلك القرصان الذي يدَّعي المعرفة، ويقتات مِن هذا الادعاء الكاذب جملة وتفصيلا، بينما هو أجهل الخلق بالخلق والأخلاق.

في الزمن الذي يشهد صراعا ضاريا بين الأمم مِن أجل تثبيت وجودها لأجيال لاحقة من اليوم، قوم ماركيز مِن القراصنة، لا يزالون يعملون على تهميش نبلاء أراضيهم مِن المعلِّمين والأطباء، مِن الكتَّاب والحكماء، بينما في الوقت عينه، يعملون على اتباع أنذل ما أنجبت هذه الأرض عبر التاريخ.

أخذ ماركيز نَفَسًا عميقا وهو يحاول ترتيب أفكاره بين زحمة ما يراه يوميا مِن مظالم، لا عزاء للظالمين والحاقدين، لا رجاء من الشوك، ولا أمل في نافخي الكير، هُم لا يدرون ما معنى أن يشعر الإنسان بإنسانيته، فضلا عن التَّصرف كبقية أبناء الإنسانية، يستأنسون بجهلهم المركَّب والمعلَّب بشكل كامل، هؤلاء الذين قتلوا مولود فرعون، طاردوا مفدي الإلياذة وكفَّروا أركون، وهمَّشوا الصدِّيق حتى آخر أيَّامه على مسرح هذه الحياة، أليس عارا أن يموت كاتِب كلمات النشيد الوطني على أرض منفاه الطوعي بعد استقلال الأرض عن مستعمِر الأمس؟ هذا النشيد الذي تتعلَّمه الأجيال وتحفظه عن ظهر قلب على مرِّ الأيَّام! لقد انتصر الكاتِب وهُزم القراصنة كلَّهم؟ لقد انتصر النبلاء كماركيز دائما.

يَضَعُ القرصانُ نفسه في مواقف لا يحسده أحد عليها، يصبحُ بلا شرف، وبلا ذمَّة وبلا مرجعة وبلا حياة أيضا، أمَّا مفاهيم مِن قبيل الكرامة، الثقافة، الصدق والنزاهة، هي صفات لا يعرفها أبدا، ولا يحاول التودُّدَ إليها لا مِن قريب ولا مِن بعيد، لهذا تجده أقرب الناس إلى الهاوية، أقرب بكثير مِن حواف السحيق بشكل لا جدال فيه.

الذُل هو ما يمقته ماركيز إلى درجة الهَوَس، لا يكون ماركيز ذليلاً مهما كلَّفه ذلك مِن أثمان، لو استطاعت روحه النبيل احتمال الذل لكان اليوم محاضرا جامعيا، متزوجا من احدى أستاذات الجامعيات، يزور بلدان العالَم كلَّ سنة، ويربي أولاده ساهرا على رعايتهم كلَّ وقته؛ لكنَّه ليس قرصانا بالمعنى العميق، رغم أنَّه مِن نبلاء بلاد القراصنة طولا وعَرضا.

مَن يحمل المعرفة عنوانا لحياته وأيَّامه لا يمكنه أن يكون ذليلا، لأنَّ "المعرفة ليست إلاَّ الإدراك وعلاقة الارتباط والاتفاق أو التقابل وعدم الاتفاق الذي يوجد بين فكرتيْن من أفكارنا، وهي كذلك دائما سواء أكنَّا نتخيَّل أنَّنا نخمنها أم نعتقد فيها، فنحن مثلا ندرك بهذه الطريقة أنَّ الأبيض ليس أسود، وأنَّ هناك ارتباطا ضروريا بين زوايا المثلث ومساواتها بقائمتيْن" (ليبتنز، أبحاث جديدة في الفهم الإنساني – الطبعة العربية، 1983م، ص:131).

المفكِّر لا يكون ذليلا مهما كلَّفته ظروف وشروط الحياة مِن أثمان وتضحيات، وهذا ما يؤمن به ماركيز، هذا ما يجعله يحمل كلَّ ما يستطيع ليصدَّ به أمواج القراصنة التي تعمل ليل نهار على إذلال النُّبلاء؛ وهو مؤمن خالص الايمان بانتصارهم على السَّفَلة والأنذال مِن القراصنة.

هي أيَّام محدودة ومعدودة نعيشها كبشر، هي أوقات ومواقيت نقضيها على وجه البسيطة كما فعل ويفعل أبناء الإنسانية، فما فائدة أن تخضع وتقوم بإذلال نفسك وترمي بكرامتك بعيدا مِن أجل بعض المظاهر التي لا تزيد سوى في فقركَ الإنساني الرهيب؟ لا يمكن أن نرى ماركيز يتخلى عن إنسانيته لقاء الاحتفاظ بمظهر اجتماعي أو مركز وظيفي على أرض القراصنة، لسبب بسيط: القراصنة ليسوا أهلا لذلك!

عندما تكون حفيدا للمجاهدين الذين قاوموا الامبريالية العالمية في صورة همجية باريس وغطرستها، وعندما تنمو في محيط يدلُّ على إجرام الفرنسيين في كافة الحكايات والأهازيج، فحتما وبطبيعة الأشياء ستشرب من كأس الحرية لدرجة الثمالة إلى حدِّ النشوة والعربدة معا، تصبح ناسكا في محراب الذكريات وعربيدا على جبهات المواجهات – وها قد اختار ماركيز أن يكون مقاتلا على الجبهة الثقافية – إنَّ الحريَّة والأحرار هُم الأعداء الحقيقيون في وجه العبيد وعشَّاق العبودية.

صراع أبديٌّ يدور بين النبلاء والأنذال في كلِّ العصور والأزمنة، هو ذلك الصراع الذي دفع بالأنبياء والنبلاء ليقاتلوا بأشرس مما فيهم، وكم من نبيل مات بين القضبان حرا طليقا، وكم من نذل عاش كلَّ حياته يزور كلَّ بقاع العالَم وهو سجين عبوديته وذله المقيت، لكلٍّ منَّا منبته، طريقه وهدفه في الحياة، فشتَّان بين العبيد والسادة، بين الأحرار والأشرار، بين الرجال واللقطاء.

يكرِّمُ الزمان ماركيز ورفقاءه على سبيل الحريَّة، هذا هو اليقين، حتى ولو عذَّبهم الزمن حينا وحتى ولو ساد الأنذال لفترة، فالنَّصر مِن نصيب الصح القح في آخر المطاف، وهو

تلك الثمرة الصافية التي لا يتلذذ بتذوقها سوى النبلاء من أبناء الإنسانية، بينما أسوأ مكان في زوايا التاريخ، هو محجوز لكلِّ نذل خائن يخون المحيطين به من أبناء جلدته، وهذا ما هو مؤكَّد ومدوَّن في كلِّ الأسفار على اختلاف الثقافات التي تنتمي إليها.

ليس غريبا على الأستاذ ماركيز محاورةُ الأنذال بلغاتهم، تلك التي لا يفهمون سواها.

المحبَّة سمة أساسية بين بني الإنسان، هي لغة الأرواح الراقية التي تبني وجودها على الأناقة راغبة في تخطي الحواجز نحو الجَمال العاطفي، وهي صفة قريبة من المزايا الرفيعة التي وهبها الله سبحانه وتعالى لعباده المتَّقين، الذين يعملون على رسم مسار طيِّبٍ لهم في الوجود.

أحبَّ الله عزَّ وجلّ الصالحين/المصلحين مِن عباده وقرّبهم منه، وأحبَّ الإنسان حياته وعمل على عيشها كما يحلو له، فقرَّب مِن ذاته كلَّ ما يشتهيه دون تدبُّر فيما يفعل أو تدبير مسبق لما هو بصدد القيام به، النتيجة هي ما تهمُّه، وهي غايته ومناه، لهذا نجد الفعل الإنساني مرتبطا غالب الوقت بالوجود الخاص لفكر المحبة التي تقود صاحبها حسب هواها.

كلُّ ما يتعلَّق بالمحبَّة وقع دفعة واحدة في عقل ماركيز عندما جلس يقلِّب صفحات كتاب نيتشه "هذا هو الإنسان"، وراح يفكِّر في كيفية إعمال هذا الفيلسوف الجرماني لعقله الرهيب في نسق المحبَّة لديه، ليخطَّ بعدها أبهى المكامن البشرية بيراعٍ يقتات مِن الوعي مباشرة.

أحبَّ الأنبياءُ أقوامهم فعملوا على نجاتهم مِن النار/الجحيم بمحاولتهم إدخالهم الجنات، ولم يملُّوا مِن دعوتهم دائما وأبدا، حتى أنَّها بقيت حسرة في أرواحهم عندما أخذ الله سبحانه وتعالى بعض الأقوام على حين غرَّة بعذابه الأليم نتيجة كفرهم أو إشراكهم؛ وقد تبعهم النُّبلاء شبرا بشبر على هذا الطريق، طريق المحبَّة المزهر.

أحبَّ الآباءُ أبناءهم بشكل جميل ورائع، وفي أحيان كثيرة كان شكلها ضارا وغير نافع، وهو ما أدَّى بالبعض إلى الوقوع بين أنياب العناد ومهبِّ التمرُّد، ليجني الجميع ما زرعوه ضمن قالب التفسير الخاص بهم لهذه النعمة الجليلة، نعمة المحبَّة، مَن فسَّرها باللين كان وجوده مقبولا ومعقولا، ومَن فسَّرها بالمراوغة أو التلفيق، كان وجوده مضطربا بين التناقض والتضاد.

الفعل الإنساني لا يمكن أن نحصره في أبناء الإنسانية، وكثير مِن المظاهر الحيوانية تعيد للأذهان صفات الإنسان، حتَّى ولو قادتها الغريزة وصور الإيمان بالذات، فمنظر قطَّة تحمل صغارها لتنقلهم من مكان إلى مكان، واحدا تلوى الآخر، تجعل القلوب تعتنق كلَّ ما هو لطيف ناعم، وتتبنى العاطفة بين الناس فتلين الأرواح وتتقارب.

المحبَّة لا تكون بين الكائنات الحيَّة، فهناك محبَّة للأماكن والأشياء؛ ماركيز يحبُّ عطوره وكتبه، يحبُّ كلماته ونصوصه، يحبُّ أحذيته البيضاء وقبعاته الملوَّنة، يحبُّ طريقته في العيش، يحبُّ ذاته حدَّ الهيام، وهي محبَّة صافية لا تشوبها شائبة، قائمة على الرغبة والرأفة في أبهى صورها ومعانيها.

محبَّة الأوطان لطالما صنعت الفروق على اختلافها، وكانت رباطا مقدَّسا بين الإنسان والأرض في كافة الأجيال والأزمان، لقد ترجمت الكثير من الشعوب محبتها لأوطانها إلى تضحيات لا مجال لذكرها، لكثرتها وشدَّة وقعها على قراء هذه الأسطر، وهي محبَّة لا نفاق فيها، فمَن يفدي وطنه بروحه لا يتصوَّر ماركيز بأنَّ محبته لما فداه بأغلى ما لديه، محبَّة غير سليمة، أو قائمة على أرضيات تهتز.

أمير نيويورك وصف المحبَّة في كتابه "النبي" بشكل جميل جدا، وكثير مِن الشعراء سال حبرهم شفاعة لهذه الميزة الرائعة في أرواح الكائنات والموجودات، لنا فيما كتبه العرب أسمى الصور الإنسانية، ولنا فيما كتبه هوميروس أهمَّ الملاحم الجمالية، وفي قواميسنا روائع شعبية أخرى مطمورة في رفوف الذاكرة الجماعية لهذه الثقافة أو تلك، وكلُّها تصب في مكان واحد، ألا وهو: المحبة كمسار نحو التكامل والتظافر.

للمحبَّة مراتب لا يتخطاها الفرد سوى بالتعبير عما يؤمن به مِن مواقف، أقدسها هي محبَّة الخالق، أجملها هي محبة الخَلْق، أنسبها للضمير هي محبة أرض الوطن، والأبهى حضورا هي محبَّة المعاني والحكايات، واعلموا بأنَّ المحبَّة بكافة أنواعها وموازينها هي مِن وصايا ماركيز لأحبائه.

يجتهدُ الإنسان في صناعة منطقة راحة تكون في ميزان الأمان لديه هي الأعلى والأوفر حظا، وهي مجال يسمح له بالوصول إلى ذاته النقية منفردا، يتفحصها ويعمل على الوقوع ضمن سلطانها ليفهم أجزاءها كلَّها، هي قدرة مهمة وخاصة بالفرد الإنساني دون غيره، هو الوحيد القادر على توفير فرصة مهما كانت ظروفه حتى يستطيع الاستمرار في هذه الحياة.

ينزل ماركيز مِن الحافلة ويتوجه نحو المدرسة حاملا محفظته كعادته، وأثناء مروره بالمركز الاستشفائي يدخل دون تفكير طويل، يسأل الموظف عن "الجرعة الثالثة" من لقاح الفيروس التاجي، فيجيبه بتوفره حالا، ودون تفكير أيضا، يأخذ الأستاذ ماركيز الجرعة الثالثة من اللقاح المصنوع في انجلترا، قبل أن يواصل سيره نحو مقر عمله، أين يقضي يومه بالكامل، وبشكل عادي، لكنَّ تأثيرات ذلك اللقاح القوي من حمى وآلام في مختلف أنحاء الجسم تبقى مصاحبة له وتشتد بعد سقوط الليل، يسقط معها ماركيز في لحظات عجز اضطراريّ، فيطرح على نفسه السؤال التالي: أثناء لحظات الضعف، كيف يتمكَّن ماركيز مِن الاستمرار في الحياة؟

الدموع، الصراخ، الانعزال والوحدة كلُّها وسائل تساعد الإنسان على أخذ وقت مناسب للاستراحة من أعباء الحياة مؤقتا، هي فترة مراجعة، تمنح الفرد الإنساني فرصة للتخلص ولو ظرفيا مما هو فيه، استعدادا للعبور نحو مرحلة جديدة، نحو مساحة أخرى، تكون بمثابة تكملة لما بدأه الإنسان.

هذا ما وقع فيه ماركيز، لقد احتاج تلك المرحلة الانتقالية من أجل أخذ بعض الراحة، صحيح أنَّ عجزه قد بلغ به حدًّا لم يستطع كتابة مقاله الأسبوعي في وقته المحدد كما هو مبرمج منذ سنوات، وتأجيله ليوم كامل، ولكنَّه احتاج أن يكون عاجزا، كان لزوما على ماركيز أن يبقى طريح الفراش بعيدا عن الروتين اليومي، حتى يتمكَّن من رسم الصورة الشاملة للمرحلة التي هو بصدد دخولها من حياته.

لقد بكى ماركيز عجزه، لقد وضع نفسه بين الأنفة والبرهان فانكسر دون تردد، علَّمته تلك اللحظة بأنَّه قابل للعب دور الضحية دون تأخير، وهذا ما بدا قولا وفعلا خلال تلك الليالي التي بدت وكأنَّها لا تنته، هي عملية تذكِّر الإنسان بأنَّ هناك طوارئ لا يمكنه أن يتوقَّعها مهما كان ذكاؤه حادا وعقله نشيطا.

فهم ماركيز محدودية قدراته في مواجهة هذا العالَم الواسع الذي يعمل القراصنة على جعله ضيقا من حوله، فهم بأنَّ العقل المقاوم والمتمرد الذي يحمله قد يتعب، قد يغيب وقد يستقيل من الحياة بسهولة تامة، قد يتركه في لحظة ما من حياته وسط الأمواج الثقافية والاجتماعية دون سابق انذار، وهذا أسوأ الاحتمالات على الاطلاق.

هي حِكمة من الله سبحانه وتعالى أن خلق الإنسان ضعيفا، لكنَّ ماركيز لا يرى في هذا مبررا للكسل والرضى بالواقع البائس الذي يعيشه القراصنة، ذلك الذي يجتهد زعماؤهم في الحفاظ على بؤسه حتى النهاية، ليس مبررا أن يعيش الإنسان بين أمواج الفقر

والفاقة، بين براثين الاحتياج والظلم، لهذا هو يعمل على حفر ممر النجاة بنجديْه لو تطلَّب الأمر ذلك.

هناك قوَّة داخلية يلمسها ماركيز في هذه اللحظات بشكل تام، تلك القوَّة التي تدفعه دائما نحو الخروج من كلِّ حفرة روحية يقع فيها، سرعان ما يخرج ماركيز من لحظات عجزه عائدا إلى نشاطه الثقافي والعقلي بشكل أكثر جنونا من ذي قبل، تلك القوة هي التي تجعل الإنسان يستمر في الحياة، خاصة إن علمنا مثلما يعلم ماركيز مسبقا بأنَّ الحياة جميلة جدا، وهي تختلف تماما عن حياة القراصنة، هي جميلة بعيدا عنهم.

يسير الإنسان على ألغام ذكرياته مستشهدا بنور مشاعره، يحاول تفكيكها عند أوَّل فرصة سانحة له، وكثيرا ما يفشل أمام الاستعصاء الرهيب الذي يقف كحاجز أمام كافة أطرافه، يسامر الحياة رغبة منه في الفوز برأفة تغزوا عمقه، لكنَّه غالبا ما يفشل بطريقة درامية سوداء، فيتحطَّمُ فؤاده على صخور الكبرياء، لكن وفي كلِّ الأحوال هو يكمل طريقه بشكل متسلسل ومليء بالمفاجآت.

يأخذ ماركيز رشفة من كوب القهوة الموضوع أمامه، يعيد تدخين السيجارة التي تعيد له بعض النشاط إلى ذكرياته، ينسخ على أذرع الأيام ما تبقى له من صور ذهنية، محاولا بذلك إعادة ترتيب ما يبدو له مبعثرا، وخلال هذا كلِّه يستلقي ضميره على راحة الأمواج الواقعية، أين يغادره العقل تاركا للعواطف الميدان كلَّه، ليتجلَّى بعد انتهائه من رسم الصورة الشاملة ماركيز/الإنسان.

لطالما أهملت أرض القراصنة مشاعر الفرد العميقة، ولطالما تأقلم القراصنة مع هذه الأوضاع، وهي حالة بائسة في تاريخ العواصف الروحية، إذ لا يمكن للفرد أن يصبح صخرة أو قطعة حجر، بلا عواطف واحاسيس، مجرَّدا من شغفه في الحياة وبلا دوافعه التي تصنع منه كائنا روحيا بامتياز.

يقاتل الكثير من النبلاء حتى يحفظوا حيواتهم الروحية سليمة معافاة، قادرة على إقامة البقاء على مساحات الجلاء، تتخذ من كلِّ دمعة ينبوعا للاستمرار ومن كافة الابتسامات أزهارا ورياحين تزيِّنُ بها ربيع الفؤاد وبهجة الأوقات، مستغلة كافة قدرات الفرد على صناعة المتعة والرغبة الروحية الأصيلة، لترتبط الحياة بما يجعل الإنسان في قمَّة قدرته على التفاعل مع مَن يحبهم، بالشَّكل الذي يجعله قادرا على مواصلة سعيه على طريق العشاق والأخيار.

الإنسان ليس آلة، ولن يكون، قد يقترب من الأدوار التي تقوم بها الآلات بإتقان، لكنَّ جانبه الروحي يمنعه من الالتفات إلى ذلك المسار الحي الذي يجرِّده من البقاء ضمن دائرة الانفعال، فالقاعدة بسيطة وواضحة: الحياة مجموعة مطبات، ولذّتها ليست في خلوها من هذه المنعرجات والمطبات، بل في الطريق ذاتها للوصول إلى ما يرمي إليه الفرد الإنساني، وهي قيمة إنسانية خالصة مميِّزَة للفرد دون غيره من الكائنات.

يتذكَّرُ ماركيز حالاته الروحية المتنوعة، مِن غضبٍ، فرحٍ، معاناةٍ ومناجاةٍ، حالات الاندفاع وحالات الانكفاء، حالات الخروج عن المألوف في أرض تعاقب الخارجين عن قوانينها حدَّ الهوس، وبقسوة مفرطة، وحالات الخضوع أو مسايرة ما تلتزم به القطعان على أرض القراصنة، وهي كلُّها تجاذبات تجعل من الإنسان كائنا قابلا للتلاشي أمام ضربات الضغوطات التي لطالما أرهقته، ودفعته إلى الاستسلام، ومع ذلك فإنَّ ماركيز لا يزال يقاتل وهو صامد أمام هذه الرياح الثقافية التي تعمل على انتزاع جذوره من أعماقه، الأمر غاية في الغرابة، فإنسان وحيد كماركيز لا يستطيع هزيمة تاريخ طويل من الظلم والقمع، وهذا مقبول منطقيا، لكنَّ المسائل الوجودية، تلك التي تتعلَّق بالجوانب الروحية، هي كفيلة بتوليد طاقات إيجابية في الداخل الإنساني تدفعه دفعا نحو النجاة!

هزم المسلمون على قلتهم الكفار عندما امتلكوا قوَّة الايمان، وقد هزم الفيتناميون الأمريكان وقبلهم الفرنسيين بقوة ايمانهم أيضا، هزم الانجليز الألمان بإيمانهم، وسيهزم ماركيز القراصنة بتلك القوَّة التي جعلت كلَّ مَن سبقوه ينتصرون، هو الايمان بالحياة، هذا ما يصنع الفرق بين النبلاء والجبناء، وهذا ما يصنع من ماركيز مقاتلا شرسا مِن أجل رفع أهدافه إلى عنان السماء، وهذا ما سيدفعه إلى صناعة ما يريد وقتما يريد وأينما يريد أيضا. الحياة تخضِع لكافة مزاياها للإنسان الذي يسعى بكلِّ ما يستطيع نحو أهدافه، وهذه هي الميزة الصلبة التي تجعل ماركيز إنسانا حيًّا روحيا وجسميا.

العداوة التي يحملها نيتشه للأخلاق واضحة جدا، لا أفهم السبب، ولا نيتشه يقدِّمُ مبررات كافية لهذه العداوة الرهيبة والجليَّة، ولكنه يشرح بكثير من الاسترسال بأنَّ هناك نصوصا كثيرة كتبها وهو جالس على السواحل الإيطالية، تذكر عداوته الشديدة للأخلاق على اختلافها، بل أحيانا يوضِّحُ عداوته الساطعة للأخلاق المسيحية، وله أعذاره طبعا، لكن سؤال الأخلاق لا يزال يدفع ماركيز للتفكير بعمق، ولا يزال مبهما أمام الرؤى الجادة، كما اعتقد بأنَّه سيبقى مبهما رغم أنَّ أغلب القراصنة يعتقدون بأنَّه واضح جدا.

لقد تمَّ بناء المنظومة الأخلاقية على الثواب المعنوي والعقاب المادي، وهي ثنائية عجيبة في تركيبتها، متماسكة في مكوناتها، قابلة للتدوير إن ما أعدنا ربطها بالواجب وكيفية أدائه عبر آلية الالتزام الذاتي ووفق الإقبال الطوعي، ولها مبرراتها الكافية في هذا الشأن، أغلبها دينية والباقي هو مستمدٌ مِن الأفعال الوازنة في التنظيم الذي يحكم الجماعة أو الثقافة بشكل كامل.

لقد أوضح نيتشه بأنَّ الأخلاق لا يكون سوى للعبيد في أكثر من محطة له، وقد شرح بأنَّ هناك نوع من الأخلاق هو خاص بالسادة، ولا يمكن للعبيد الأخذ به، بينما من نواحي أخرى نجده يربط الفعل الأخلاقي والحرص عليه هو ضمن قائمة الجبناء، وهي طريقة تضع المنظومة الأخلاقية من حيث الوجود والتأثير ضمن الإطار التساؤلي الذي يعيد طرح مبدأ التمسك بها أمام البحث والعودة إلى فرضيات اعتقد الإنسان أنَّه تخلص منها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ماركيز ألهمته هذه الفكرة عندما واجه التيار البراغماتي العنيد، وهو تيار يعتبر الأخلاق زينة يفتتن بها الأغبياء فقط، إذ الكلمة العليا في الحياة ليس الجانب الروحي وإنَّما الجانب الواقعي القائم على الأرباح والخسائر، ومهما كانت الفكرة، فإن لم تكن نافعة للإنسان فهي عالة عليه، وبهذا فإنَّ أسس المنظومة الأخلاقية بهذه النظرة تصبه أعباء تثقل وتقلق راحة الإنسان بلا فائدة.

على الضفة المقابلة وهي الجهة الأكثر تأثيرا على الإنسان المعاصر، نجد بأنَّ الديانات، الفلسفات والثقافات تتجنَّد أمام المنظومة المادية/الواقعية لحماية المبادئ الأخلاقية والتي ترعى بشكل واضح المسائل الروحية التي تستقي وجودها من العوالم التي لا يمكن للإنسان إثبات وجودها كما لا يمكنه إثبات عدم وجودها أيضا، وبهذا يصبح العقل تابعا في هذه المسألة، ليحلَّ محله الحدس والايمان على فترات ووفق درجات تختلف باختلاف الملفات المطروحة على طاولة النقاش.

لو استعملنا المنهج التحليلي الواضح المعالِم، يصبح الإنسان كائنا أخلاقيا وروحيا مشبعا بالأخلاق كمنظومة وكيان، وهذا ما تثبته الأرقام قبل الحسابات الأيديولوجية التي غالبا ما تكون ضيقة الآفاق، لو ألقينا نظرة سريعة على عدد أتباع الديانات عبر مختلف أنحاء العالَم، سنجد بشكل مبهر بأنَّ الأغلبية الساحقة هُم من المؤمنين أو من أتباع هذا الدين أو ذاك، بل إنَّ هناك الكثير من الفرق والجماعات الروحية التي تتبنى المنظومة الأخلاقية

أو جزء منها كمناهج وقوانين يفرضون احترامها على كلِّ المنتسبين إليها أو المتعاطفين معها.

كافة دساتير الأرض ومعظم الأفكار خرجت مِن المعابد، فلا يمكن للإنسان أن ينفي الدور الروحي في الحياة، حتى المؤسسات التي تحارب الجانب الروحي نجد أنَّ شعاراتها ومبادئها روحية تماما، ولنا في المثال الفرنسي أوضح الأمثلة، ففي الوقت الذي نجد أحد المسؤولين الفرنسيين يقف في مواجهة الكاميرات والشاشات مشيدا بالعلمانية واللائكية وما إلى ذلك من الشعارات المضادة للديانات، فإنَّنا لو تأمَّلنا المحيط الذي يقف في قلبه ذلك المسؤول – البائس/اليائس – سنلاحظ شعار الجمهورية الفرنسية الواضح خلفه: الحرية، الإخاء والمساواة، وهي أفكار تخرج من كافة معابد الأرض ومساجدها، لكن للغرور غطرسة لا تجدي معه مراهم العالَم كلِّه للأسف.

يشرح نيتشه في كتابه "الفجر" مصطلح الاستلاب الذاتي، وكيف أنَّ الفرد الإنساني يقع ضحية جملة مِن المفاهيم المتناقضة، تلك التي اخترعت لتنعم النفس بالهدوء، وإذا بها تُوظَّفُ بشكل يجعلها تقمع كلَّ هدوء يصيب الإنسان؛ فعلا! يرى ماركيز بأنَّ هناك ما يقلب المفاهيم لأجل تعاسة الإنسان، لأجل الاستمتاع بتنغيص أيَّام الآخرين تحت شعارات كثيرة تجتمع في رؤيا واحدة وهي: إظهار الذكاء.

هناك ما يسميه ماركيز بالثقافة الضحلة (the dirty culture)، هي طريقة في التقليد البائس، لأنَّها تجعل المنتمي إليها يقوم بكافة المنكرات في حقِّ ذاته وغيره مِن أجل الظهور بثوب العالِم الجليل أو الداهية الفذ، وهي طريقة من طرائق كثيرة، تدمِّر الأقربين إلى هذا الجبان، قبل أن تدمِّر ذاته المسلوبة منه منذ البداية.

الجلوس إلى جماعة ورمي الرموز كما بعثرة الأفكار الموجَّهة قبليا، والايحاء قبل دفع بعض الأغبياء إلى مهاجمة أهدافي دون أن أظهر أنا كمنافس أو أبقى مختفيا في الظلام، فهذا لا يسميه ماركيز ذكاء، بل هي خساسة، ترفع من منسوب البؤس في الأنفس، ولا تجعل صاحبها في موقف القوَّة، بل يضعه في خانة المساكين.

متعة ماركيز عندما يجالس غبيا يدَّعي الدهاء، هذا الادِّعاء يجعل صاحبه يكشف عن كل ما كان يخفيه تحت ستار "المحبة" ليظهر كلَّ فضلاته بشكل كامل، وهي طريقة تجعل ماركيز يتأكَّد كلَّ مرَّة مِن أنَّه يصارع قراصنة مِن أبشع ما أوجدته الحياة على الإطلاق، لأنَّ منسوب البؤس عالي جدا لديْهم للأسف.

ماركيز أيُّها الغريب بين "أهله" وناسه، هؤلاء البؤساء الذين أوغلوا في بؤسهم حتى اعتقدوا بأنَّ الحياة لم تنجب المَرَح والفرح إلاَّ على طريقتهم البائسة/اليائسة، لقد صارت الحياة لديْهم محصورة في تلك التصوُّرات المسوَّسة التي ورثوها عن الجهلة الذين سبقوهم، وها هم يتمسكون بها حتى آخر لحظاتهم في هذه الحياة.

الضياع مصير كئيب، والغباء أشدُّ النتائج عجرفة، بينما حالة الجهل بالغباء أمر يجعل صاحبه في حُكم المنفى الطوعي، أين تنتهي الحياة إلى صندوق مظلم ومغلق بإحكام، الأمر في غاية الخطورة، ففي الوقت التي تصدر الكثير من الدراسات التي تفسِّر وتشرح الجهل المركَّب، فإنَّ الغباء المركَّب لا أحد ينتبه إليه، ذلك الذي يسميه ماركيز بالثقافة الضحلة.

قد يسأل سائل: ما معنى الثقافة الضحلة؟

هذا النوع من الثقافة هي مجموعة مِن الثوابت التي تأخذ صيغة اليقين، يرثها الفرد مِن الذين سبقوه، لكنها لا تملك أداة تحريك الأفكار، بل هي تهاجم كلَّ مَن يجرؤ على التفكير، وبهذه الطريقة نجد أنفسنا كما وجد ماركيز نفسه سابقا، أمام كائنات تشبه البشر، تقلِّد في تصرفاتها كلَّ ما يجعلها تفسد في الأرض، ومِن ناحية أخرى تعمل على تخريب كلِّ ما يبدو لها جميلا، لتشعر بوجودها فقط، وكثيرا مِن الأحيان، هي تكتفي بتأليف الكذب والإشاعات، أو تتبع عثرات "الخصوم" لتنتهز أقرب فرصة لتنبيههم بأنَّها على دراية بهذا الجميل الذي يصنعونه "سرا"، بينما هي في الأصل كتلة من الأحقاد تنفث خرابها في كافة الاتجاهات.

حسب ماركيز فإنَّ المنتمين إلى هذا النوع من الثقافة، يعيشون معذبين قبل غيرهم، فهُم لا يعيشون حياتهم الخاصة، لأنَّهم وببساطة يقضون أوقاتهم في حراسة غيرهم، وتتبع عثراتهم أو ما تبدوا لهم أخطاء، وبذلك هُم يضيِّعون فرص العيش مقابل سخافات وتفاهات لا مجال لرصدها، لأنَّها لا تستحق ذلك.

شفاء هؤلاء يكون بالرجوع إلى ذواتهم المسلوبة، فعندما تراقب أحدهم ثمَّ تدفع طرفا ثالثا لتنبيهه بأنَّك تراقبه، فأنتَ عمليا مِن عبيد هذا الذي يبدو لكَ أذكى منك وأنت تعمل على إظهاره بمظهر الغبي، وستبقى من عبيده إلى أن تقرر الابتعاد عن هذه اللعبة التي لن تنفعك لا أموالك في الفوز بها، ولا نشاطك الغبي في ذلك، لأنَّك لست أنت من يصنع الحدث، بل هو، أيها الغبي!

سَرَحَ الأستاذ ماركيز بعينيْه البنيتيْن على طول الأفق، أين تتألَّقُ زرقة مياه البحر المتوسط، لتسقط في ذهنه الكثير مِن الأفكار، كان أهمها متعلقا بـ: "مجتمع القراصنة"، فقد لاحظ قبل أيَّامٍ بأنَّ الإنسانَ العامِل بين هؤلاء القوم، تجده معظم الوقت في حالة مِن الكآبة، وعدم الرغبة في العمل، فيا ترى لماذا؟

هي الكلمة السحرية التي غالبا ما تتردَّد على مسامع ماركيز عند محاولته البحث عن الجذور الأساسية لأيَّة مشكلة تغوص فيها الإنسانية على أرض القراصنة، هي كلمة الظُّلم (L'injustice)؛ وهي فعلا سبب أساسي في حالات البؤس (La misère)، وماركيز يتفهَّم هذه الرابطة بين الشعور العميق بالظلم والحالة الاجتماعية المزرية والصعبة، خاصة في حالات الأفراد الحالمِين بالأيَّام الجميلة.

هناك أسباب أخرى بلا شك تجعل الفرد الإنساني في حالة بؤس يومي تقريبا، ربما أبرزها تلك الفكرة التي تربط ذهن العامِل (Le travailleur) بعدم جدوى ما يقوم به، لأنَّ أرض القراصنة كما هي أرض القارة الأفريقية عموما، وأفريقية الشمالية بالخصوص، ليس لديها مشاريع اجتماعية/ثقافية تبث الحماس في أفرادها ومواطنيها، لتدفعهم لاستخراج كافة طاقاتهم تضحية لإنجاز هذا المشروع الجماعي.

كما أنَّ عدم المساواة (L'égalité) بين المكافآت هو عنصر مهم لوصول عمال هذه الأرض لتلك الحالة مِن الركود، وهي السبب الذي يدفع المنتج إلى الخمول مهما كان مركزه، فعندما تعمل من أجل أجر زهيد لا يشتري لك قطعة لحم واحدة إن ما قارنا أسعار المواد الاستهلاكية بالأجور اليومية، فأنت بشكل آلي ستتشعر بالبؤس والحسرة، وبالتالي لن تقوم بأعمالك سوى بما تستطيع القيام به في حدود بذلك للمجهود بدرجات دنيا، لأنَّك تدرك مسبقا بأنَّك لن تنال حقَّكَ كاملا.

لا توجد عدالة اجتماعية على أرض القراصنة، وما نراه في صورة العمَّال ما هُم سوى بطالين مقنعين كما ورد في نص "العَدَم الثمين" عند تميم البرغوثي، تلك الأجور التي يتقاضونها هي رشاوي يأخذونها لقاء صمتهم على المظالم التي يتعرضون لها، وذلك المسار الذي رُسِم للقرصان في القصور ما وراء البحر على الضفة الشمالية من البحر المتوسط، هو الحِمل الأثقل الذي يجب العمل على التخلُّص منه.

أينما يقع الظلم يقع البؤس، هي ثنائية يعرف ماركيز جيِّدًا بأنَّها على اتصال دائم، لا يمكن أن نجد بائسا سعيدا، ولا سعيدا بائسا، وعلى أرض القراصنة ليس هناك استثناء في هذه المسألة، لكن وبالمقابل قد نجد البائس سعيدا في حالة واحدة فقط، عندما يكون

هذا البائس جاهلا ببؤسه، وهذا ما يدركه زعماء القراصنة جيّدًا، لهذا هُم يعملون بكلِّ قواهم على نشر الجهل في كافة نواحي حياة القراصنة، لأنَّ البائس الجاهل هو فرد وديع غير مزعج، قادر على تقبُّل حالته الاجتماعية الصعبة وهو مستكين إلى أوهام مختلفة، رافضا بشدة الحقائق التي تنتشر أمام عينيْه.

البؤس لا يظلم أحدا غصبا، هو يظلم القراصنة طواعية، فهذه النقطة بالذات تُشكِّلُ الجانب الرئيسي فيها قيمة "الوعي" (La conscience)، كلَّما زاد وعيُ القرصان بما هو فيه، فإنَّه يحمل إمكانية تحديد المسؤولين عن هذه الوضعية، فيتمرَّدُ عليهم وعلى الظلم الذي هُم أهم أسبابه، ولكن للأسف، لا أحد يستمع لما يقوله ماركيز وإخوانه مِن النُّبلاء، وهذه مصيبة إضافية تزيد من تعقيد القراصنة.

لا خير في أنَاسٍ لا يستمعون، وإن استمعوا لا ينصتون، وإن أنصتوا لا يقرؤون، وإن قاموا بالقراءة تجدهم لا يفهمون، وإن فهموا عادوا إلى جهلهم بسرعة، لأنَّهم يخشون مِن التغيير (Le changement)؛ هُم يعتقدون بأنَّ المذلة التي يعيشونها هي قضاء وقَدَر، وأنَّ الحياة تتوقف عند حدود جهالتهم، لكن ماركيز يستعير مِن فيلسوف البرميل مقولته ليسقطها على حال القراصنة قائلا لهُم: "ابتعدوا لأرى الشَّمس".